النورس

قصة بقلم
نيروز مالك

« الى القاص الفلسطيني محمد نفاع في الارض المحتلة »

اختلطت عليه ذكريات الامكنة والازمنة . كان قد تبادل معهم الحديث ، في أمسيات ماضية ، ضحك معهم في اماكن عديدة ، ضحك حتى دمعت عيناه ، شرب معهم البيرة الشقراء ، باقداح كبيرة، شرب الفودكا، والشمبانيا، والنبيذ الجيورجي المعتق . لكن ذكرى تفائه الاخير معهم لم ينسه، يذكره ، كما يذكر الانسان حبه الاول ، كما يذكر الانسان جرحه الاول . كان ذلك في ضاحية من ضواحي مدينة ، تحمل اسما اجنبيا ، في صالة فندق قديم المبنى . كان يومها (أ) قد حدثه عن صديقه (م)الذي ادار ظهره ، ورحل بعيدا ، هاربا بجلده من الجحيم . كان (أ) الى جانبه يدندن باغنية ، ثم يتبع الاغنية ، بصفير هادىء ينبع من اعماقه ، كلحن جبلي فيه قوة الصخر ، وطراوة الزهر .

قال (أ) : « كانت الحياة صعبة . صعبة علينا جميعا . يصدف ان نكون جلوسا ، نتحدث بامور شتى ، في السياسة ، والادب ، والحب والجنس .. في كل ما يخطر ببال الانسان ، من هموم ، واحزان ، وعذابات . وبحركة لا شعورية ، يرفع احدنا يده ، وبصدفة غير مقصودة ، تقع عيناه على الساعة . فيتذكر بان الزمن قد سرقه . فالعقارب تكاد ان تشير الى السادسة . فيقوم ، وهو يتنهد بحرقة ، ويمشي مكرها الى المخفر ، ليعلن عن وجوده مساء ، بعد ان يكون قد اعلن عن وجوده صباحا .. » .

وعندما عاد (أ) الى غنائه ، وصفيره ثانية . كان صوته يحمل عذاب العالم كله واساه .

كانت « تانيا » البيضاء الجميلة ، تدور حولنا في مطعم الفندق ، كنحلة شقراء ضاحكة .

تسألنا بين الفينة والاخرى : آن كنابحاجة لشيء ما؟

كنا نضحك لها ، ونشكرها على اهتمامها بنا . ولكن كثيرا ما كان احدنا يهتف بها :

ـ تانيو شكا ؟ (١)
ـ دا ... (٢)
ـ بيفا ...

وتجلب لنا « تانيا » زجاجة البيرة الشقراء ، فنسكبها في اقداحنا الكبيرة ، ثم نعبّ منها بصمت .

والشمس تنحدر غاربة ، خلف اشجار « بريوسكا »، فتحيل جذوعها البيضاء الى لون وردي رقيق .

اذكر مساءها . قام (س) ، وانسحب معتذرا ، بعد ان تناول مجموعة من الاوراق ، « عفوا يا شباب ، لدي مخطوطة قصص اعطانيها (ن) ، لكي اطالعها له » .

تذكرت الاخير . كان قد وصلتنا له مجموعة قصص، بعد ان عبرت الاسلاك المكهربة ، والخوذات الفولاذية الثقيلة ، والبنادق الاتوماتيكية السريعةالطلقات ، لتهزنا حتى النخاع ، لترسم لنا بشاعة الحياة في الشوارع الصفراء .

التفت اليه . وقلت : « هل حقا صاحب المخطوطة في السجن ؟ » .

اجابني ـ وهو يتمدد على السرير : « نعم .. » .

سألته : « لماذا ؟ » .

اجابني :« كان على صلة برجال المقاومة .. » .

ادخلني جوابه القاطع ، دائرة الصمت ، وانا انظر اليه ، واردد في نفسي بآلية : على صلة برجال المقاومة ، على ...

مساءها ، تحدثنا عن كثير من الامور ، بشكل فاجع. بينما كان (ب) منطويا على نفسه ، غارقا في صمته ،وهو يحدق في الليل النائم ، على زجاج النافذة ، يحرق سجائره بروية واصرار . دفعني صمته ، الى استرجاع اخبار ابنه الصغير في نفسي . كان قد اخبرني عنها ذات يوم ، ونحن نسير عبر الشوارع متجهين الى « بارك

(١) تصغير لاسم تانيا للتحبب (٢) : نعم بالروسية

كلتوري » . قال : « في احدى المرات التي ظهر فيها رجل البوليس في دارنا . راح يسأل ابني محمود : هل والدك بالبيت ؟ اجابه الصغير : نعم . تقدم منه ، واراد التودد اليه، وهو يسأله : ماذا يفعل ؟ اجابه محمود : ينظف بندقيته . كنت لحظتها واقفا داخل البيت ، امام النافذة ، ارقب ما يجري في صحن الدار ، فرأيت الرعب الذي ارتسم على وجه رجل البوليس ، وهو يهتف غير مصدق : ينظف بندقيته ! وتراجع الى الوراء مذعورا حتى تعثر بحجر صلد في وسط الدار ، فسقط ممددا على ظهره » .

اذكر يومها صمت (ب) طويلا ، وعندما تابع حديثه، لم يتحدث عما حدث له بعد تلك الواقعة ، انما تابع قائلا: « عندما يظهر البوليس في بيت ما ، من بيوتنا تكون النتيجة في الطف الحالات الشتم ، والبصاق ، ودعك الظهور بالهراوات . وفي الحالات الاخرى ، يكون احتلال البيت من قبل الجنود ، وتفتيشه بدقة ، بعد ان يسوقوا افراد العائلة الى غرف التحقيق ، والتعذيب ليبدأ حوار المقاومة والصمود بين الجسد ، وادوات التعذيب القديمة والحديثة » .

كان صوته حزينا ، مجروحا كطائر النورس الباسط جناحيه فوق البحر . كطائر النورس ، الباحث عن جزر الفرح الخضر . وهو يشعل سيكارة جديدة ، ويعود الى تأمله في الليل النائم ، على زجاج النافذة .

شعرت بضيق الصمت الذي اطبق علينا ، فمددت يدي ، وضغطت على ساعده : «ما بك ؟ »

التفت الي . ثم ابتسم وقال : « لا شيء » .

قلت له بلوم : « منذ ساعتين لم تنطق بكلمة ! » .

ابتسم ثانية ، وقال : «لا ادري ، فانا احس بخواء ، واحباط كبير هذا اليوم . لا ادري ، لماذا يلذ لي الصمت هذه الايام ؟ » .

وصمت ثانية ،ثم قام ، وهو يتابع : « لدي شيء اود ان اطلعك عليه .. » .

وتقدم من الطاولة . بحث بين مجموعة من الاوراق المكدسة فوقها ، ثم سحب بعضها ، وعاد وجلس في مكانه الى جانبي :« انها قصة . آخر ما كتبت . لقد انتهيت منها منذ اربعة ايام » .

وناولني الاوراق . قلبتها بين اصابعي ، ثم غرقت بين سطورها .

هزتني القصة ، لما فيها من بساطة وعمق ، فالتفت اليه ، وانا اشد اصابعي على الاوراق ، واقول له بانبهار :« رائعة ..» .

ادار وجهه عن النافذة ، ونظر في عيني ، كأنه يشك بقولي . فكررت له رأيي ثانية :
« انها رائعة ، بدون اية مجاملة ! » .

واتاني صوت (س) سائلا :« اليست هي قصة :واحد من كثيرين ؟ » .
اجبته : « بلى .. » .
اردف (س) : « كان هذا هو رأيي ايضا .. » .

ابتسم (ب) ، بحزن وهو يتناول الاوراق مني ، ثم يطرق بخجل . ولكنه رفع رأسه .

وحاول الابتسام ثانية ، فلم يستطع ، ظل وجهه جامدا . ما لبثت شفتاه أن ارتعشتا ، واخضلت عيناه بالدمع ، فقام بارتباك ، واتجه صوب الباب ، وهو يقول بصوت مخنوق ، « آسف . انا . آه ... » .
ولم يكمل . كان قد فتح الباب وخرج .

التفت الى (س) . فكان الاخير ينظر الى الباب الذي انغلق وراء (ب) وخطواته تبتعد عبر الممر .

كان الحزن ، يتألق على وجه (س) ويزهر كما اللوز في الربيع . وقبل ان افتح فمي ، واستفسر عما اصاب صديقنا ، قال : « انها قصة اخيه . فقد اخذوه من البيت بعد منتصف الليل . فقد ضبطوا لديه منشورات سرية. تحرض الجماهير على مقاومة الاحتلال ، فظلوا يعذبونه حتى استشهد » .

سكت (ب) فساد صمت عميق بيننا . غرق كل واحد منا في نفسه . كنت اشعر بضيق وتوتر غير عاديين ، وبنمو كره جارف في نفسي . وددت لو كان امامي شيء ما ، لكي احطمه بقبضتي ، عندما تصورت وجه انسان جميل ، وهو يلفظ انفاسه تحت التعذيب . رفعت رأسي، عندما سمعت صوت خطوات (ب) العائدة ، عبر الممر . فاتجهت حواسي كلها صوب الباب . وهو يفتح ..

دخل علينا ، وعلى وجهه ابتسامة خجل ، فتناول سيكارة عن الطاولة ، ثم طلب من (س) عود كبريت . وهو يقول له ضاحكا : « هيا اخرج من الفراش يا رجل ، دعك من النوم ، فالليل لم ينتصف بعد ؟ »

ثم انطلق بعدها ، في حديث ضاحك طويل ، عن الغربة التي طالت ، عن الاصدقاء الذين اشتاق اليهم ، عن الناس البسطاء ، والمظاهرات ،والاضرابات ، عن كثير من الاشياء . اما عن اخيه . فلم ينبس بحرف واحد .